مصطلح المفارقة والتراث البلاغي العربي القديم

د. محمد سالم قريميدة
قسم اللغة العربية – كلية التربية – أبي عيسى
جامعة الزاوية

تمهيـــد :

مصطلح المفارقة من المصطلحات التي تتردد بكثرة في النقد العربي المعاصر، وهـــو مفهوم حي تتنازعه مقاربات مختلفة أشد الاختلاف، فقد يجد فيها عالم الاجتماع تجليا من تجليات العلاقة الاجتماعية بين الأفراد، ويجد فيها الفيلسوف شكلا من أشكال الوعي والجدل.

فالمفارقة من المفاهيم المعرفية التي تغري حقولا معرفية مختلفة، إذ تكـــاد لا تســـتثني نشاطا إبداعيا يأتيه الإنسان، وهي تبدو في مظاهر شتى تتصل بالوجود والمجتمع، ومـــــن ثـــم تنعكس صورهـــا على الأدب، متمثلة في أوجه التناقض والتضاد، حيث إنها تقوم على أساس أن ما نسلم به وما نقبله هو أمر لا يجب أن نسلم به من وجهة نظر موضوعية، فهي إذن تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل.

وأسلوب المفارقة من الأساليب البلاغية التي يستخدمها الأدباء، والمبدعون في التعبير عن أفكارهم، قد تكون لهم دوافع فنية وجمالية ودلالية، وهي تأخذ كثيرا من الأشكال، والأنواع كالتهكم والسخرية وغيرها.

المفارقة لغة:

في البداية يجب علينا أن نعرج على المعاجم العربية قديمها وحديثها، بغية الوقوف على ما له صلة بمعاني هذا المصطلح، وذلك انطلاقا من الجذر الثلاثي للفظة (ف ر ق)، بفتح الفاء، والراء، والقاف، وحول المعنى اللغوي لهذا المصطلح نقرأ في تضاعيف بعض المعاجم ما نصه:

((الفرق: تفريق بيِّن حتى يفترقا ويفرقا، وتفارق القوم افترقوا: أي فارق بعضهم بعضا)) [1]، وهي أيضا: ((الفرقان: كل كتاب أنزل، به فرق الله بين الحق والباطل)) [2]، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ [3].

والمفارقة اسم مفعول لـ(فارق) من الجذر الثلاثي (فرق)، ومصدرها (فرْق)، بتسكين الراء، والفرق خلاف الجمع، وهو تفريق بين شيئين [4].

وجاء في المعجم الوسيط: فرق بين الشيئين، فرقا، وفرقانا: فصل وميز أحدهما عن الآخر، وبين الخصوم: حكم وفصل [5].

أما مختار الصحاح ففيه: فرق بين الشيئين من باب نصر، وفرقانا أيضا، فرق الشيء تفريقا. وأخذ حقه منه بالتفاريق [6].

وأما المعجم الوجيز الذي يعد من المعاجم الحديثة فجاء فيه: فارقه مفارقة وفراقا باعده، فرق بين القوم أحدث بينهم فرقة، فرق القاضي بين الزوجين حكم بالفرقة بينهما [7].

وهكذا من خلال ما ذكرته المعاجم نخلص إلى أن معنى المفارقة في اللغة هو: الفــرق والافتراق، والفصل والتباعد، والتباين، والتمييز بين شيئين أو أمرين أو موقفين، لاسيما إذا كــان هذان الأمران على طرفي نقيض.

المفارقــة اصطلاحـــا:

مصطلح المفارقة غامض، ويثير الالتباس ، لكونه يمتلك تاريخا طويلا ، يصعب علــى وجه الدقة تحديده، فهو أمر غائر في الزمن، إذ يرتبط بقصة الخلق، وبشعور الإنسان الأول مرة بالخلط بين القبح والجمال، وأخرى بين الخير والشر، إلا أنه من المؤكد أن الإنسان يعيش منــذ نشأته داخل ظاهرة المفارقة، لكن يختلف كل إنسان عن الآخر في الاتصاف بها، أو الانتباه لها، وذلك تبعا لتكوينهم الاجتماعي والثقافي، غير أن الإنسان ما إن أدرك أنــه يعــيش فــي داخــل المفارقة حتى توالت تعريفاته لها، كما إن إشكالية هذا المصطلح تكمن في استخدام بعض الكتاب له بطريقة منمقة غير محددة، يضاف إلى ذلك أنه في حالة تطور مستمر، فالمفارقــة ((لا تعنــي اليوم ما كانت تعنيه في عصور سابقة، كما أنها لا تعني في قطر بعينه كل ما يمكن أن تعنيه في قطر آخر، ولا تعني في الشارع ما تعنيه في قاعة الدرس، ولا عند باحث ما تعنيه عنــد باحــث آخر)) [8] .

ولذلك سوف نجد أقوالا كثيرة لكتاب وفلاسفة وأدباء، تتغنى كلها بأهمية المفارقة ســواء في الأدب، أو الحياة [9].

ومصطلح المفارقة مصطلح غربي، ظهر مؤخرا لدى النقاد العرب في العصر الحديث، وعليه سنتتبع تعريف المصلح في الأدب الغربي أولا، ثم الأدب العربي المعاصر ثانيا.

المفارقة في الأدب الغربي:

إن نظرة على المشهد النقدي الغربي والعربي ، الذي تتراءى فيه حدود المفارقة تؤكد أن مفهومها لا يخلو من مراوغة، فهو يتداخل مع معان عدة ربما بدت متنافرة، فقد اختلف دارسو المفارقة في تعريفها، فهي تعني عند أرسطو: ((الاستخدام المراوغ للغة، وهي شكل من أشكال البلاغة)) (10)، وعند ماكس بيريوم هي: ((إحداث أبلغ الأثر، بأقل الوسائل تبذيرا)) (11)، ويعرفها صمويل جونسون بقوله هي: ((طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى فيها مناقضا، أو مضادا للكلمات)) (12).

أما ميويك فيذكر تعريفا للمفارقة أكثر تطورا، حيث إنه لم يحصر المعنى المراد بدلالة واحدة، فيقول هي: ((قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيرا واحدا، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة)) (13)، أما أوجست شليقل يبين أن: ((المفارقة شكل من النقيضة)) (14)، ويعرفها رولاند بارت بقوله: ((المفارقة شكوك تتحول إلى نوع من القلق مطلوب في الكناية، ومن شأن هذا القلق إيقاء تلاعب الرموز، وتعدد الدلالات قائما)) (15)، وعند تومبسون لا تتحقق المفارقة في الأدب إلا ((عندما يكون الأثر الناجم عنها مزيجا من الألم والتسلية)) (16) .

المفارقة عند النقاد العرب المحدثين:

لقد عرف النقاد العرب المحدثون المفارقة بوصفها مصطلحا نقديا، متأثرين بما جاء عن الغرب، عبر ترجمة المصطلح، تقول سيزا قاسم المفارقة: ((استراتيجية قول نقدي ساخر، وهي في الواقع تعبير غير مباشر عن موقف عدواني يقوم على التورية، وهي طريق لخداع الرقابة، لأنها في كثير من الأحيان تراوغها ، بأن تستخدم على السطح قول السائد فيه، إنها

تحمل في طياتها قولا مغايرا له)) [17]، ويعرفها عبد الواحد لؤلؤة بأنها: ((صيغة بلاغية، تعبر عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضاد)) [18]، أما عبد العزيز الأهوائي فيعرفها بأنها: ((إثارة التعجب بين متناقضين، ولكن أحدهما لا يبطل الآخر)) [19]، وعبد العزيز علوش، يعرفها بقوله هي: ((تناقض ظاهري، لا يلبث أن تتبين حقيقته))[20]، وعرفها الدكتور عبد الهادي خضير، كما تجلت له في شعر المتنبي فقال هي: ((تعبير لغوي بأسلوب بليغ يهدف لاستثارة القارئ ، وتحفيز ذهنه لتجاوز المعنى الظاهري المتناقض للعبارة– والوصول إلى المعاني الخفية التي هي مراد الشاعر الحقيقي)) [21]، أما ناصر شبانة فيعرفها بقوله: ((يمكن القول بادئا إن المفارقة انحراف لغوي يؤدي بالبنية إلى أن تكون مراوغة، وغير مستقرة، ومتعددة الدلالات، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيات أوسع)) [22]، كما يعرفها عشري زايد بقوله هي: ((تكنيك فني يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين، بينهما نوع من التناقض)) [23]، وتعرفها أمينة رشيد بقولها هي: ((نظرة إلى العالم، وموقف من حقيقة الأشياء)) [24].

فالمفارقة لا تخرج عن كونها أسلوبا، أو صيغة بلاغية يستعملها المرء ليقول قولا، أو يتصرف تصرفا يحمل معنيين، أحدهما ظاهري، والآخر باطني، وهو ما يكون مفارقة توريـة، وهي تعني: انزياح داخلي تتأسس قاعدته المعيارية في النفس على هيئة نسق مميز، ثم يتلاشى النسق ليظهر نسق آخر يفارقه في خصائصه الصوتية، أو التركيبية، أو الدلالية، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

وهكذا فالدراسات العربية الحديثة التي تناولت المفارقة مصطلحا نقديا، بعضها أضاف في بناء هذا المصطلح، مما جعله أكثر وضوحا في الذهن، وبعضها الآخر بدا المصطلح فيها

أشد غموضا مما هو في النقد الأجنبي، وفي العموم المفارقة لا زالت محتشمة الظهور في النقد العربي.

وهكذا وفق ما تراكم لدينا من معانٍ ودلالات للمفارقة نجمل إياها في المفهوم الذي نرجو إن يغدو جامعاً مانعاً وفحواه: هي أسلوب بلاغي عالي التقنية، أساسه عرض وجهتي نظر متعادلتين متعارضتين متضادتين، بين مفهوم عام شائع وآخر ذاتي فكري، وكلما أشتد التضاد بينهما برزت المفارقة، مما يضفي الوضوح والإيجاز والجمالية على النص الأدبي عامة والشعري خاصة من جهة، وما تؤديه من دلالات أو معان عدة من جهة أخرى، شرط إن تستفز ذهن القارئ وتحفزه لتجاوز المعنى الظاهر إلى المعنى المقصود للشاعر. ونشير إلى أن هذا البحث ليس من مهمته الغور في المفارقة وأنواعها، وإنما المراد تتبع دلالات المفارقة في التراث البلاغي العربي القديم.

دلالة المفارقة في التراث العربي النقدي البلاغي القديم:

يشير باحثوا المفارقة العرب، إلى أن هذا المصطلح ليس له وجود بلفظ صريح في المصادر البلاغية والنقدية العربية القديمة، وعدم وجود هذه اللفظة في التراث العربي، لا يعني عدم وجود ألفاظ أخرى، وشيوعها في الاستعمال اللفظي والأدبي، كانت تقوم مقامها بشكل أو بآخر، فكتب التراث العربية حوت مصطلحات تحمل مضامين ودلالات المفارقة ومعانيها، لكن تحت مسميات أخرى غير مسمى المفارقة، فهناك مصطلحات بلاغية عربية حملت كثيرا من دلالاتها لعل من أهمها:

مصطلح التعريض، التشكيك، تجاهل العارف، سوق الكلام مساق غيره ، المدح بما يشبه الذم، والذم بما يشبه المدح، التشبيه، الاستعارة، وغيرها من المصطلحات البلاغية العربية

القديمة، وسنحاول أن نوضح مدى ارتباط كثير من هذه المصطلحات البلاغية مع مصطلح المفارقة.

التعريض:

هو: ((اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي، أو المجازي)) [25]، ومن هنا يتضح أن فهم التعريض هو الأساس في كشف بنيته، وهذا المفهوم يقارب مفهوم المفارقة، حيث لا مفارقة إن لم يدرك المتلقي أبعادها، ويفك رموزها ، ويسوق ابن الأثير مثالا على ذلك ، وهو قول الله تعالى: ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ [26]، ويعلق ابن الأثير بقوله: ((غرض إبراهيم عليه السلام من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم، لأنه قال: ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء)) [27]، فالمفارقة هنا ضرب من التألق، من الناحية الأسلوبية ، وهدفها الأول كما يقول ماكس بيريوم: ((إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيرا ، وصاحب المفارقة المتمرس يستعمل من الإشارات أقلها)) [28]، وسيدنا إبراهيم عليه السلام أراد إيصال فكرة مفادها أنكم تعبدون ما لا ينفع ، ولا يضر ، وهذه العبادة بحد ذاتها مفارقة، يقول ميويك: ((عندما تكون الصورة فكرية أو أدبية سواء بالإفصاح عن قول، أو إيصال رسالة فإنها عند ذلك تتصف بالمفارقة)) [29]، ومن أمثلته أيضا قول ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة: ((ومن أفضل التعريض مما يجل عن جميع الكلام قول الله عز وجل: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [30]، أي: الذي يقال له هذا، أو يقوله وهو أبو جهل، لأنه قال: ما بين جبليها ــ يعني مكة ــ لا أعز مني ولا أكرم، وقيل: بل ذلك على الاستهزاء به)) [31]، لقد كان موقف أبي جهل موقف مفارقة كوميدية (أسلوبية) نهايتها مظلمة، وأوضح ابن رشيق ذلك من خلال تعليقه على الآية الكريمة.

التشكيـــــك:

يقــول ابــن رشيق القيرواني هــو: ((مــن ملح الشعر وطرف الكلام، وله في الــنفس حــلاوة وحسن موقع، بخــلاف مــا للغــو والإغراق)) [32]، وفيه يقترب الشــبهان: ((حتــى لا يفرق بينهما، ولا يميز أحدهما من الآخر)) [33]، ومن الأمثلة التي ساقها قول زهيــر بــن أبــي سلمى:

ومَا أدْرِي وسَوْفَ إِخَالُ أدْرِي أقومُ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

فإن تكــن النساءُ مخبــــآتٍ فَحُقّ لكُلّ مُحْصَنَةٍ هِداءُ [34]

ويظهر من قول الشاعر أنه يستهجن القوم ويستخف بهم، فبــين أن الأمــور اختلطــت عليه، بحيث لم يعد يتحقق من جنسهم، أهم نساء، أم أنهم رجال ؟، فأصبح في شك مــن أمــره، وهو أفضل من أن يقول: هم نساء، ما قرب إلى التصديق، وهذا التشكيك يمثل ســخرية مــرة، حيث أخذ في وضعه شكلا من أشكال المفارقة السقراطية [35]، وذلك لما يطرحــه مــن أســئلة للمحاورة تفيد الشك، رغم أن الشاعر متأكد بحقيقة الشيء.

تجاهل العارف ومزج الشك باليقين:

هو مصطلح من مصطلحات البلاغة العربية، يعني عن،،د أبــي الإصــبع العــدواني : ((سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم ، أو ليدل علــى شــدة التدلــه فــي الحــب، ولقصــد التعجــب أو التقريــر، أو التوبيخ)) [36]، وعند السكاكي: ((سوق المعلوم مساق غيره)) [37]، ومن أمثلته ما كتبه أحد الأدبــاء إلــى بعــض أهــل الأدب: ((سمعت بورود كتابك، فاستفزّني الفرح قبل رؤيته، وهزّ عطفي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيــت: أخــط مســطور؟ أم روض

ممطور وكلام منثور؟ أم وشيي منشور؟ ولم أدر ما أبصرت في أثنائه: أأبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته: أغيث حلَّ بواد ظمآن، أم غوث سيق إلى لهفان)) [38]، فهو لا يخرج عن كونه تجاهل العارف المتكلم للحقيقة ، ويريد البلوغ من خلال أسئلته لمحاورة مدى معرفة هذا الأخير لهذه الحقيقة ، وكأنه يباغته بالسؤال والجواب. ومن أمثلته شعرا، قول البحتري:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ ؟ أَمِ ابْتِسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي [39]

ومن خلال ما تقدم، فإن مصطلح تجاهل العارف، يتقاطع مع مصطلح المفارقة السقراطية، بل هو مطابق لها، إذ كان سقراط يبني في محاوراته صورة الرجل الذي يدعي الجهل بالأشياء لا يفتأ يسأل عنها بهدف إثارة الشكوك لديهم فيما ظلوا يعتقدون به [40].

التهكـــم:

في الاصطلاح هو: ((عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار والوعد في مكان الوعيد والمدح في معرض الاستهزاء)) [41]، والتهكم يصدر عن نفس ساخرة ناقدة ليس بها حقد، أو غضب، وهو قائم على التصريح بالفكرة المقصودة [42]، فالتهكم أو الاستهزاء إنما هو قول نقيض الشيء الذي تقصده، سواء كان قولا أو فعلا ، والمقام والسياق هو الجدير على توضيح المعنى من هذا الأسلوب التهكمي ، والتهكم قد يأخذ شكلا من أشكال المفارقة ، يرى محمد العبد: ((أن المفارقة أداة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء ، ويخرج عن ذلك الاستهزاء الذي تخلو صياغته اللغوية من مفارقة اللفظ للمعنى ، بل يرد إلى أدوات لغوية أسلوبية أخرى ، وهو ما نجده مثلا في قوله تعالى: ﴿ أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ [43]، وقد جاء على لسان المشركين استهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم، فالعبارة هنا أدت إلى قلب هذا المعنى بأدوات أهمها الاستفهام الاستنكاري)) [44]، ويضيف محمد العبد في هذا السياق قوله:

((وما نجد فيها يعني المصادر العربية مقابلا للمفارقة استنتاجا من النماذج المتمثل بها في المضمون العام، والمغزى هو اصطلاح التهكم، وقد ذكره البيانيون وعنوا به إلى حد ما)) (45).

ثم يقول: ((ومن هنا يجوز لنا القول إن ظاهرة المفارقة التي يهتم بها اليوم علماء الدلالة والأسلوب قد عرفت طريقها على نحو ما، إلى البحث البلاغي العربي القديم، وبعض المباحث اللغوية اليسيرة تحت مصطلح التهكم)) (46).

تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو: ((أن يأتي المتكلم بكلام يتضمن مدحا ، أو ذما، وإثبات صفة أو حدث ، ثم يبدؤه بما يشعر باستثناء أو استدراك على كلامه السابق)) (47)، ومن أمثلته قول النابغة الجعدي:

فَتَى كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ المَالِ بَاقِيَا (48)

فالبيت الشعري يقوم على مفارقة دلالية، حيث رسم النابغة صورة لممدوحه، فتىً ليس له نظير، فتجسد فيه الكمال، في الخلق والسجايا العربية الأصيلة، ولكن ما يظهر من خلقه بصورة بارزة دون غيرها، الكرم والجود، فلا يبقى المال عنده، ويكون للسائل والفقير نصيب فيه. الشاعر أعطى الكمال في الأخلاق لممدوحه واستثنى منها خلق الجود والكرم، ليس لأنه رجل بخيل، بل لان الجود والكرم هما أكمل أخلاقه وأبرزها، وهذا تأكيد كمال أخلاقه وهو تأكيد من الضرب الثاني.

إن من يستمع إلى الشطر الأول من البيت، يظن الشطر الثاني خالياً من الصفات والخلق الحميد، لأنه جمعها في عبارة فتى كملت أخلاقه، وإذا به يأتي في الشطر الثاني بصفة حميدة طغت على كل صفاته وأخلاقه ألا وهي الكرم. وتكمن المفارقة في أن المتلقي يتوقع أن يستمع ما يسيء إلى الممدوح، فإذا به يستمع ما يؤكد أخلاقه وكمالها، وبهذا يكون الشاعر قد كف

ألفاظه وأوجزها، لتحتوي على كل قيم الأخلاق والكمال التي يعرفها العربي ويعتز بها، فأوجز وأحسن وابلغ، وجسد بفعله القول المعروف عن المفارقة: ((إحداث ابلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيراً)) (49).

وفي موضع آخر يقول الجعدي:

فَتىً تَمَّ فيهِ ما يَسُرُّ صديقهُ على أَنَّ فيه ما يَسوءُ الأعادِيا (50)

يضفي الشاعر على ممدوحه، كل ما يمكن أن يسر صديقه والناس، ويستدرك ليؤكد أن فيه ما يسوء الأعداء ، ويجعلهم يفكرون قبل أن يمدوا أيديهم بالسوء والأذى إليه، هذا الفتى تام الصفات لدرجة أنه يبعث السرور إلى نفس من يراه، وخص بذلك الصديق، ويعود ليؤكد أن فيه شيئاً آخر، والمتلقي يتوقع أمرا سيئاً أو صفة قد تخرجه عن التمام الذي أقره الشاعر في شطره الأول، إلا أننا والمتلقي معاً نتفاجأ بأن ما يسوء فيه، يسوء الأعداء فقط، ما أتمها من صفات! وما أجمل السيئ فيها، حيث لا يسوء إلا الأعداء، وهذا الأمر في أساسه مفارقة لفظية بلاغية.

الذم في صيغة المدح:

يقصد المتكلم هجاء إنسان، فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح، وباطنها الذم، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجوه (51)، ومثاله قول المتنبي:

فيا ابنَ كَرَوّسٍ يا نِصْفَ أعمى وإن تَفخَرْ فيا نِصْفَ البَصيرِ (52)

فابن كروس أعور، ولكن المتنبي يأبى أن يصل إلى هذه الحقيقة مباشرة ، فلا يكون قد حقق شيئا، ولكنه يريد أن يصل إلى ما هو أبعد من ذلك، فهدف إلى وضع ابن كروس بين حقيقتين لا تستطيع أن تدعي إحداهما، لأنه نصف أعمى ونصف بصير، ((وبالتالي تكون

المفارقة قد حققت أهم خصائصها، وهي أنها لم تترك القارئ إلا بعد أن رسمت على شفتيه ابتسامة هادئة تشوبها السخرية من الضحية)) [53].

التورية:

يقال لها في اللغة: ((الإيهام، التوجيه، التخير، والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنها مصدر وريت الخبر تورية، إذا سترته، وأظهرت غيره)) [54]، أما في الاصطلاح فهي: ((أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خافية، فيريد المتكلم المعنى البعيد، ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب، وليس كذلك، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاما)) [55]، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [56]، فالتورية في لفظة (أيد) فمعناها القريب الظاهر هو اليد، أما المعنى البعيد فهو بيان القدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، والمفارقة دلالية تقترب من التورية باعتبار أن هناك بنية لغوية تحمل ازدواجية في تأويل المعنى، والمعنى الخفي الذي يجب على القارئ التوصل إليه.

المقابلة:

هي: ((أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب))[57]، وهي أنواع منها المقابلة بين لفظتين كقول الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ [58] ، ومنها ما يكون بين ثلاثة ألفاظ أو أربعة ، ويتضح أن المقابلة من أكثر الظواهر البديعية قربا للمفارقة في الاستعمال الأدبي، وان كان هذا الاستعمال لا يخرج عن التعبير عن التناقض والاختلاف لمظاهر الحياة.

الاستعـــارة :

هي ((أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه، وتظهره إلى اسم المشـــبه به، فتعتبره المشبه وتجريه عليه... وتفسير هذا أنك قلت: رأيت أسدا فقد ادعيت في إنسان أنـــه أسد، وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدا)) (59)، ومن خلال هذا المنظـــور، فـــإن الاســـتعارة لا تخرج عن إطار الاستعمال المجازي للغة، أي تمثل انزياحا من الحقيقة إلى المجاز، كمـــا أنهـــا وسيلة من وسائل التعبير الدلالي (60)، والمفارقة تلتقي مع الاستعارة فـــي البنيـــة اللغويـــة ذات الدلالة الثنائية، فالمعنى ((الاستعاري يضارع المعنى المفارقي لكونه دائما هـــو معنـــى منطـــوق للمتكلم، بيد أن المتكلم في الاستعارة بما هو متكلم على المجاز لا يعني ما يقوله حرفيا، بل يعني شيئا أكثر منه، بينما يعني المتكلم في المفارقة نقيض ما يقوله)) (61)، ونسوق مثالا على تقـــارب الاستعارة من المفارقة، وهو قول الشاعر الجاهلي طفيل الغنوي:

وجعلتُ كورِى فوقَ ناجيةٍ يقتاتُ شحم سنامها الرَّحلُ (62)

لقد أظهر أن ناقته سريعة، مما دفعه إلى الانتقال الذي لا يهدأ، ودليله على هذه الســـرعة هو اقتيات الرحل لشحم سنام الناقة، وقد استعار الاقتيات لذهاب شحم السنام، وهو شيء جامد لا يقتات، فالاقتيات من فعل الكائنات الحية، وهو قد ذكر المشبه الرحل وحذف المشبه بـــه، وأتـــى بقرينة مانعة وهي يقتات، والمفارقة تكمن في إضفاء صفات حيوية على الجماد، ليؤكد الشـــاعر طول طريقه، ومعاناة ناقته وهلاك سنامها، ويبين الجهد الذي بذله للوصول إلى مـــا أراد، وهـــو بذلك أبلغ رسالته مـــن خـــلال المفارقـــة التصويريـــة للحدث الـــذي كانت الناقـــة ضـــحيتها، وهو بطلها، فالمفارقة تلتقي مع الاستعارة في البنية اللغوية ذات الدلالة الثنائية.

التشبيـــــه:

التشبيه في اللغة التمثيل (63)، وفي الاصطلاح هو: ((عقد مماثلة بين طـــرفين لوجـــود صفة مشتركة، أو أكثر بينهما، بأداة ملفوظة أو ملحوظة.. وهذا يدل على قيـــام التشـــبيه علـــى

أربعة أركان هي: المشبه، والمشبه به، ويسميان طرفي التشبيه، وأداة التشبيه، ووجه الشبه))[64]، والتشبيه من الفنون الجميلة الجذابة، أجاده معظم الشعراء والأدباء، وسنحاول تتبع ما أضافه هذا الفن من إبداع وإجادة في صياغة المفارقة، من خلال ما استعمله الشعراء من تشبيهات، يقول لبيد بن ربيعة العامري:

دَرَسَ المَنَا بمُتَالِعٍ فأبَانِ وَتَقَادَمَتْ بالحُبْسِ فالسُّوبَانِ

فنعافِ صارةَ فالقَنَانِ كأنَّها زُبُرٌ يُرَجِّعهَا وليدُ يَمَانِ [65]

فهو يذكر مواضع لأهله، وأحبته ويحدد مكانها، برغم اندراسها وتقادم الزمن عليها، فهي معروفة لديه، وشبه اندثارها وما بقي منها بالزبر، أي الكتاب، الذي يقرأه وليد من اليمن، ويبدو أن هذا الكتاب واضح الخط، بين العبارات، ومما يزيد في وضوحه ترديده من الولد اليماني الذي يجيد القراءة، وهذا تشبيه يحمل في طياته مواصفات المفارقة، حيث شبه صورة في حالة اندثار، بصورة الزبور الواضحة، ومما يزيد في وضوحه ترديد الولد اليماني له، حيث الرؤية السماعية والبصرية في وقت واحد، فهذه مفارقة ذات تضاد عال [66]، تحمل الصفة الشعورية، والتشبيه تام لتكامل أركانه.

وهكذا فالمصطلحات البلاغية من الاستعارة والتشبيه وغيرها تقترب من المفارقة اللفظية اللغوية التي هي طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى المقصود فيها مخالفا للمعنى الظاهر، حيث ينشأ هذا النمط من كون الدال يؤدي مدلولين متناقضين، الأول مدلول حرفي ظاهر، والثاني مدلول سياقي خفي، وكلاهما في الواقع بنية ذات دلالات ثنائية تشتمل على علاقة توجه انتباه المخاطب نحو التفسير السليم للقول.

ويمكننا القول من خلال ما تقدم:

دراسة المفارقة ضرورة قائمة كي تسهم في إضاءة جوانب ما تزال مطوية في النمط الخطابي العربي، ومن المؤكد أن حس المفارقة كان أصيلا بدليل أنه لا يخلو عصر من

العصور، أو أدب من الآداب، ولو بدرجات متفاوتة من التعبير بالمفارقة [67]، سواء تجلت في النص الأدبي كله أو في بعض من أجزائه.

إذا كان مصطلح المفارقة لم يرد بلفظه في الاستعمال اللغوي، أو الأدبي النقدي العربي القديم، ولم يعرفه بلغاء العرب على هذا النحو من التحديد الحديث، إلا أنهم أحسوا بخصوصية الكلام الذي يراوغ، ويهرب من تحديد المعنى، أو يقول شيئا، ويعني شيئا آخر، ومن هنا كان كلامهم عن التهكم، والمدح بما يشبه الذم وغير ذلك من المصطلحات البلاغية، التي تقوم على التلاعب باللغة، فتلك المصطلحات حملت جزءا كبيرا من دلالات المفارقة، كما أن اللسان العربي قد مارس المفارقة على مر العصور في شعره ونثره.

وعليه يجب على الباحثين العرب الاهتمام بدراسة هذا المصطلح، وتطبيقه على التراث العربي القديم، وإبراز دور العرب في هذا الأسلوب، وليس بالضرورة الأخذ دائما من الغرب.

<u>هوامش البحث:</u>

1- كتاب العين ، الفراهيدي ، تحقيق: مهدي المخزومي ، و د. إبراهيم السامرائي ، ج147/5.
2- المصدر نفسه ، ج148/5.
3- سورة آل عمران ، الآية: 3 ــ 4.
4- لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر، بيروت، ط 2، مادة: فرق.
5- المعجم الوسيط ، إخراج الدكتور إبراهيم أنيس وآخرين، إشراف حسن علي عطية، ومحمد أمين، ط 2 ، ج685/2.

6- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، (ت 666 هـ)، دار الرسالة الكويت ، مادة: فرق.
7- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، د ط ، 1994 م ، بيروت ، ص469.
8- المفارقة وصفاتها، دي سي مبويك، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة،، دار المأمون للطباعة والنشر، بغداد، موسوعة المصطلح النقدي [13] ، ص129.
9- ينظر: المفارقة في النص الروائي، نجيب محفوظ نموذجا، لحسن حماد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2005 م، ص19.
10- المفارقة والأدب دراسة في النظرية والتطبيق، خالد سليمان، دار الشرق، عمان، ط 1، 1999 م، ص129.
11- المفارقة وصفاتها، دي سي مبويك، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة، ص 35.
12- نظرية المفارقة، خالد سليمان، مجلة أبحاث، اليرموك، مجلد 9، عدد 2، الأردن، 1991م، ص 57.
13- المارقة وصفاتها ، ص161.
14- المفارقة والأدب دراسة في النظرية والتطبيق، خالد سليمان، ص 18.
15- المصدر نفسه ص18.
16- المفارقة وصفاتها، تر عبد الواحد لؤلؤة، دي سي ميويك، ص140.
17- المفارقة في القص العربي المعاصر، سيزا قاسم، مجلة فصول، مجلد 2، عدد 2، 1983، ص10.
18- الترميز، جون ماكين، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد، 1990 م، ص95.

19- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر، د. عبد العزيز الأهوائي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 2، 1986 م، ص 109.

20- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدكتور سعيد علوش، بيروت، 1405هـ/1985م، ص162.

21- المفارقة في شعر المتنبي، عبد الهادي خضير، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2000 م، عدد 11، ص3.

22- المفارقة في الشعر العربي الحديث، ناصر شبانة، ص46.

23- بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة دار العروبة، د ط، د ت، ص147.

24- المفارقة الروائية والزمن التاريخي، أمينة رشيد، مجلة فصول، مجلد 11، عدد 4، 1993م، ص143.

25- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير، تحقيق: كامل محمد، ومحمد عويطة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1998 م ، ص304.

26- سورة الأنبياء ، الآية: 62 و63.

27- المثل السائر في أدب الكاتب والشعر ، لابن الأثير ، ص305.

28- المفارقة وصفاتها، دي سي ميويك، ص 29

29- المصدر نفسه، ص17.

30- سورة الدخان ، الآية: 46.

31- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ج304/1.

32- المصدر نفسه، ج 310/1.

33- المصدر السابق، ج 310/1.

34- ديوان زهير بن أبي سلمى ، نشر: حنا ناصر الحتي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ط، 2004 م، ص 81.

35- المفارقة وصفاتها ، لدي سي ميويك ، ص27.

36- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق: حنفي محمد شرف ، ص135.

37- الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت، ط 4 ، 1998م، ج351/1.

38- الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق: علي البجاوي ، ومحمد فضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب ، ط 1 ، 1952 م ، ص392.

39- ديوان البحتري، تحقيق: كمال الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، 1191 م، ط 3، ج442/1.

40- انظر: نظرية المفارقة ، لخالد سليمان ، ص66.

41- خزانة الأدب وغاية الأرب ، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ، تحقيق: عصام شعيتو الناشر: دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط 1، 1987 ، ج315/1.

42- بناء المفارقة في فن المقامات ، عند بديع الزمان الهمداني، والحريري، نجلاء حسين الوقاد ، دراسة أسلوبية، مكتبة الآداب، القاهرة، د ط، 2006، ص 132.

43- سورة الفرقان ، الآية : 41

44- المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالـــة، محمـــد العبـــد، كليـــة الآداب القـــاهرة، ط 2، 2006م، ص17.

45- المرجع نفسه، ص33.

46- المرجع السابق ، ص31.

47- البلاغة العربية ، لعبـــد الـــرحمن الميـــداني ، دار القلـــم ، دمشـــق ، ط 1 ، 1996 م ، ص322.

48- ديوان النابغة الجعدي: تحقيق عبد العزيز رياح المكتب الإسلامي للطباعة، دمشـــق، ط 1، 1964،173.

49- المفارقة وصفاتها: دي. سي. ميويك: 63.

50- ديوان النابغة الجعدي 174.

51- انظر: المفارقة في الشعر العربي الحديث، لناصر شبانة، ص11.

52- شرح ديوان المتنبي، الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ت 468 هـــ، طبعة برلين، 1861 م، ص104.

53- فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة أعبيد، ص199.

54- خزانة الأدب، لابن حجة الأموي، ص295.

55- المصدر نفسه، ص295.

56- سورة الذاريات، الآية: 47.

57- التلخيص في علوم البلاغة، السكاكي، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقـــوقي، دار الكتـــاب العربي، بيروت لبنان، د ت، ص358.

58- سورة التوبة، الآية: 82.

59- دلائل الإعجاز في علم البيان، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد محمود الشنقيطي، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1978 م، ص53.

60- الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، لجابر عصفور ، المركز الثقافي، بيروت، ط 3، 1997 م، ص224.

61- المفارقة القرآنية، لمحمد العبد، ص25.

62- ديوان طفيل الغنوي ، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد الكتاب الجديد، بيروت، ط 1 ، 1968، ص 54.

63- انظر: لسان العرب، لابن منظور ، مادة شبه.

64- علم أساليب البيان، د. غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 1، 1983 م، ص94.

65- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حققه وقدم له: إحسان عباس، ص138.

66- انظر: المفارقة وصفاتها، دي سي ميويك، ص64.

67- انظر: فن القص في النظرية والتطبيق، نبيلة إبراهيم، ص29.